الاستعمار أولا ..

قال فشنفسكى لا تذهب ·· ولكنى أعلنت اصرارى على الذهاب ·· وقلت اننى أعرف كيف أناقشهم · بل لعلنى خير من يمكنه التفاهم معهم بالذات ·· ومنذ أن وصلت الى الحديدة ، وهم يدورون حولى وأشهد أنهم فى كل مكان ، فى مراكز ادارية كبيرة ، خدم فى دور الضيافة ، تجار ، طلبة قدامى ، متسكعون فى الاسواق ، عمال فى المحلج سائقو سيارات ··· والجميع يحيطوننى بنظرات شماكة عاتبة تريد أن تسأل وأن تحاسب ، وأن تحكى الكثير ··· لقد وصلهم اسمى قبل أن أصل بأيام عن طريق الاتحاد اليمنى ، وكانوا يعرفون صلتى باليمنيين بالخارج ، ومن الطبيعى أن يتوقعوا من جانبى محاولة للاتصال بهم ·· فلما لم تأت هذه الخطوة ··· تقدموا هم من جانبهم ·

وهمست شخصية كبيرة فى أذنى ، وهى تشد على يدى بما لايدع مجالا للشك « **لا تضيع الحقيقة** » ·

ولم يكن فى الوقت متسع لان أخوض معه نقاشا فى ماهية الحقيقة ·· وسكت ··

وظن الرجل أننى موافق فطلب لقاء ليبصرنى بالحقائق ·· ولكنى اعتذرت بضيق الوقت وبأنى أحاول أن أرى الحقيقة بعينى أنا ·· وظن اننى أشك فيه فعاد يهمس بأسماء يمنية أعرفها ·· وأردت أن أنتهى منه فعلقت فى استياء ···

« لماذا لا يعود هؤلاء الى اليمن ؟ ان بلادهم فى حاجة اليهم ٠٠ وقد أصدر ولى العهد عفوا عاما ٠٠٠ لقد قابلت واحدا من عائلة الوزير يعمل بالحكومة ومرافق البعثة السيد احمد الشامى نفسه قضى فى السجن خمس سنوات »

ونظر الرجل الى فى ارتياع ولم ينطق لسانه بحرف ، وحكت عيناه ألف اتهام !

وهمس خادم فى أذنى يحذرنى من موظف ٠٠٠ ويبعث بالسلام الى أصدقاء بالقاهرة ٠٠

ودس تاجر قطعة صغيرة من الورق فى يدى فركتها فى عنف وألقيتها أمام عينيه ٠٠٠

وفى النهاية جاءونى بغرفتى فى قصر الضيافة٠٠ اثنان ٠٠ تلوح فى عيونها روح المؤامرة وأعلنا فى الحاح أنهما سينتظرانى عند شاطىء البحر من صلاة العشاء حتى مطلع الفجر ٠٠٠ وفشلت جهودى فى الاعتذار ٠٠ ولما انصرفا هرعت الى فشنفسكى أسأله المشورة ٠٠ كنت فى أعماقى أرغب فى لقائهما ٠٠ وأحتاج الى من يذكى هذه الرغبة فى نفسى ٠ وظننت أن صاحبنا الذى يقول عنه العقاد « يبيع الشغب لمن يشتريه » سيدفعنى الى الذهاب ولكنى فوجئت به يرفض ويحاول منعى من الذهاب فى اصرار شديد ٠٠ واستطاع بحججه وبما أثاره فى نفسى من الخوف أن يقنعنى بالامتناع عن الذهاب ٠٠٠

وحتى أقطع على نفسى خط الرجعة خلعت ثيابى واندسست فى الفراش ٠٠معلنا أننى سأنام محذرا من أيقاظى حتى لو وصل الاذن الملكى باعتماد البروجرام !

***

واستأذن فى الحديث فرفضت ٠٠٠

وغاب قليلا وعاد يحمل عشر سنوات من كفاح ضد الطغيان في مصر ، وأحاطت السنون بالفراش تتناقش فى صخب مريع ، وعلا صوته فجأة « لقد عشت حياتك ثوريا تؤمن بالشعوب ... ولكن طريق الشعوب شاق وطويل .. نم هانئا يا عزيزى ... لتكن منذ اليوم صديقا للملوك » وقهقه ضاحكا وهو يقول : « يا لسخرية القدر » !

لماذا اخترت اليمن بالذات .. وماذا تقول لصاحبك اليمنى الذى عاش معك شهورا يحرق فى دمه وأعصابه حتى يقدم لك قضية شعبه ... اذا حدث ولقيته قل له اننى تركت أصدقاءك عند شاطىء البحر وعبثا ينتظرون ، لقد آثرت السلامة والنوم الهانىء

وهمس فى خبث « لماذا لا ترشد عنهما ؟ ألا ترغب فى ريبورتاج عالمى عن طريقة الاعدام فى اليمن ؟ !

وقبل أن تمتد يدى اليه قذفنى بمجموعة أوراق ممزقة تحمل عنوانا ضخما هو « شعب فى الجحيم » .

وقلبت الاوراق ، وعرفت فيها خطى وكتاباتى ونحيتها جانبا

ولجأ الى سلاحه الاخير فقال :

« اعلم انك لن تستطيع أن تخاصمنى طويلا ... يمكنك أن تنام ولكننى لن أعرفك طعما للنوم متى عدنا الى القاهرة » ..

وأنا أعلم الناس بقوة تهديده ، واعتدلت جالسا ودعوت ضميرى الى المفاوضة ...

فى الحرب العالمية الاولى هبت الثورة العربية تريد الخلاص من الحكم التركى العفن ٠٠ واستطاع الامام يحيى بن حميد الدين أقوى حكام اليمن أن يقود كفاح شعبه ضد الاحتلال التركى ٠

وخاض الشعب اليمنى كفاحا مريرا بطوليا ضد الاتراك ، واستطاع بكفاحه وحده ان يحقق استقلاله ويعلن وحدة الامة اليمنية واستقلالها كدولة عربية ٠٠٠ ولم تكن هناك مصلحة استعمارية تتطلب احتلال اليمن فالانجليز يسيطرون على الساحل تماما ٠٠ والسيطرة على السواحل تسمح دائما بالتحكم فى الداخل ـ فى ذلك الحين على الاقل والقيام بحملات واحتلال الجبال والصحارى فى قلب اليمن يعنى تكبد نفقات وخسائر ترهق كاهل الامبراطورية ، ولا تنتهى الى شىء ٠٠٠ اذ يستطيع الف يمنى مسلح أن يسببوا صداعا مرهقا لقوات الاحتلال حيث لا طرق ولا أهداف ولا شىء على الاطلاق سوى الرمال والدماء ٠٠٠

وكان للانجليز النفوذ فى شمال الجزيرة ولم تكن قد سويت مشاكل البترول فى الخليج والعراق وايران ٠

واستطاع الامام يحيى أن يجنب بلاده الاحتلال فلما جاء دور الشركات امتنع تماما عن اعطاء أية امتيازات ٠٠ كانت تجربة سلاطين الساحل وأمراء الهند ماثلة أمامه وأعلن الامام الراحل سياسة الباب بل والشباك المغلوق ٠٠٠

كانت اليمن ـ ولا تزال ـ بحاجة الى كل شىء وكان العالم يسيطر عليه الذين يمنحون الشركات والعربات الكاديلاك ويأخذون كل شىء ٠٠٠ ومرة أو مرتين اصطدم الامام بالعالم الخارجى ٠٠ وعلى أثر العدوان البريطانى فى ١٩٢٨ اعترفت اليمن بالاتحاد

السوفيتى وقام لون من التبادل التجارى وأنتج فيلم روسى عن اليمن وألف روسى كتابا عن الارض المحجبة ..

وخاض الامام حربا خاسرة ضد الجيوش السعودية وأجبر على التخلى عن مساحة واسعة من أراضيه ... ثم تقلص نفوذ الانجليز فى شمال الجزيرة وجاء الامريكان ... وكان امتدادهم الى الجنوب يعنى الاصطدام بالانجليز ولم تكن هناك ضرورة تحتم ذلك ، فالسياسة العامة لشركات البترول الغربى لا تتطلب الاستغلال الكامل لكل الحقول ، وبترول السعودية يكفل بقاء السعر العالمى عند الحد الاقصى للربح ...

والبئر السعودى يفضل اليمنى بمميزات لا يمكن تجاهلها أقلها أن قيام شركات بترول فى اليمن سيفضى فورا الى نمو طبقة عاملة يمنية ، سهلة الوحدة والتماسك يشد أزرها أربعة ملايين من الفلاحين يطالبون بكل شىء ...

وهكذا استطاع الامام أن يبقى فى عزلته رافضا الاعتراف بشرعية الاحتلال الانجليزى فى الجنوب زاهدا فى نهر النايلون والكاديلاك والخيام المزودة بآلات تكييف الهواء ! ذلك النهر المتدفق شمالا فى الحجاز وشرقا فى الكويت ..

ولكن الزهد صفة نادرة لا يقوى عليها الا القليل وبدأت تتجمع حركة معارضة ، تريد الاصلاح ، اليمنيون الذين ذهبوا فى بعثات الى الخارج يريدون نهضة تلحق بلادهم بركب الحضارة .. يريدون اصلاحا فى نظم الحكم ، والتجار يريدون ثورة فى النظام المالى والضريبى والاقتصادى ، ومن خلف هؤلاء يدوى هدير الفلاحين ..

وبدأت العاصفة تتجمع .. تكونت الجمعيات السرية ، وأشهرها « الجمعية اليمنية الكبرى » وكان من الطبيعى أن تنمو على نطاق الامة اليمنية بأجمعها سواء فى المحميات وهى ولايات الساحل التى

يحتلها الانجليز أو فى الداخل حيث يغلق « الامام يحيى » الباب .

وليس من المجدى أن نناقش **هل كان يمكن أن يتعاقد الامام يحيى مع الشركات ويوقع الاتفاقيات دون أن يتهدد ذلك استقلال اليمن بالخطر ؟؟ ...**

فالطرف الآخر يقول ان اليمن كانت تستطيع على الاقل أن ترسل بعثات تعليمية الى الخارج حتى تستطيع مواجهة مطالب التطور ، بدلا من البقاء حتى منتصف القرن العشرين ، دون أن يتخرج طبيب يمنى واحد ، فضلا عن مهندس أو قانونى أو رجل اقتصاد .. وبدلا من أن تبقى اليمن هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا تعترف بستيفنسون مخترع القاطرة ، ودون أن ترى الترام ولو مرة على الشاشة الفضية ، ولا يشق فيها طريق واحد لسير السيارات ...

أقول ليس من المجدى الدخول فى هذه المناقشة ، فقد كلفت اليمن حياة امام ، ومئات من زهرة شبابها ومثقفيها ، ثم سنوات من الشك ، والرعب ، والاضطهاد .

وبدأت عجلة التاريخ تدور ..

وظهرت على أبواب عالمنا العربى دولة كبرى على استعداد لان تقدم كل شىء ولا تطالب بشىء .

وبلغ الشعب العربى رشده ، وتفتحت عيناه وأصبح لا يخشى مصاحبة الكبار ، وصاحب ذلك تطور شامل فى مراكز القوى فى العالم الغربى ..

الذين تسللوا الى الشمال أصبحوا هم سادة العالم الجدد ، والاوصياء على كل التراث الاستعمارى .. بينما راحت الارض تتقلص من تحت الانجليز القابعين فى الجنوب ، فازداد تشبثهم بما فى أيديهم .

ولما كان السيد الحليف يسمم لهم كل بئر للبترول ، لا تسهر على

حراسته قوات صاحبة الجلالة ، فقد كان على الانجليز أن يفتحوا آبارا جديدة ، فى المناطق التى لم تصل اليها يد الحليف بعد ·

وكان جنوب الجزيرة ، أو الولايات اليمنية المقتطعة ، هى خير مكان لبناء صناعة بترول تطيل فى حياة الامبراطورية الفانية ·· واستلزم الامر اجراء تسوية سياسية مع « صنعاء » يتم فيها اجبار حكومة اليمن على الاعتراف بالوضع القائم ، مما يكفل استقرارا للمشاريع الاستعمارية فى عدن وحضرموت والضالع وبيحان ·· الخ

وبدأ الضغط على صنعاء من الجنوب ·

والسادة الامريكيون فى الشمال يعتبرون قيام أى مشروع للبترول دون اشرافهم استفزازا مباشرا لهم ! وينظرون الى كافة حقول البترول التى اكتشفت والتى لم تكتشف بعد كملكية خاصة لهم · وتفرض عليهم ضروريات الحرب الباردة ، والامل فى تحويلها يوما الى ساخنة ، تفرض عليهم دس النفوذ فى كل مكان ·· وبدأ الضغط على صنعاء من الشمال وأصبح شعار الاستعمار « لا بد من صنعا وان طال السفر » ·

وأصبحت السياسة الانعزالية لا تجدى فى حماية استقلال الدول الصغيرة ، وكان لا بد أن تخرج اليمن من عزلتها ··

ولم يقتصر التطور على ما ذكرناه بل ان أهم وأعمق تطور هو ما تم فى القاهرة وأعنى سيطرة الشخصية العربية المستقلة على مقاليد الامور واكتشافها طريق الاستفادة من الشرق ·· مع انتفاء خطر الانقلابات الاجتماعية ···

وكان من غير المعقول أن يتركنا الاستعمار نسلك هذا الطريق ·· ومن ثم بدأت المعركة ·· القاهرة تريد أن تشق الطريق نحو عالم عربى متحرر ، تقوم قوته على أسس راسخة من الصناعة والاقتصاد المستقل ···

وهذا يعادى فى الدرجة الاولى الاستعمار والنظام الاقطاعى اللذين يتقاسمان السيطرة والنفوذ فى العالم العربى ويفرضان الجهل والتأخر والعبودية على شعوبه ، ولما كان الاقطاع لا يعيش الا بحماية الاستعمار ومستندا الى تأييده ٠٠ فان المعركة فى حقيقتها ليست سوى صراعا مع الاستعمار ٠٠٠

صحيح أنه من الممكن أن تختلف الخطوة الاولى من بلد الى بلد ، لقد كانت فى سوريا مثلا ، كفاحا ضد الاستعمار انتهى بجلاء الفرنسيين والانجليز ٠٠٠ وهكذا أصبح من الممكن قيام حكومة وطنية تحررية ٠٠

أما فى القاهرة فقد بدأنا بقتال الاستعمار وتركنا ظهورنا مكشوفة للاقطاع ٠٠ فاستطاع ان يكيل لنا ضربة حاسمة ٠٠٠ وان لم تكن قاصمة فى ٢٦ يناير ٠٠٠

وغيرت الثورة المصرية أتجاه ضربتها وان لم تغير هدفها وطوحت بالاقطاع ، ومن ثم ، فتح الطريق للتخلص من الاستعمار ٠٠ ولكل بلد ظروفه ٠٠

***

ووجدتنى عند شاطىء البحر ، رغم احتجاج فشنفسكى ، فقد انتصر الآخر فى أعماقى ، وقررت أن أناقشهما بصراحة ٠٠٠

وجلسنا عند بقايا الميناء القديم ، ومياه البحر تلطم الرمال من تحتنا فى قسوة وعنف ، البحر الذى عرف المتاعب أخيرا ٠٠٠
ونرنو بأنظارنا آلى أقصى الشمال ٠٠ القناة التى حفرناها بأيدينا وملأناها بدمنا ٠٠ فلما استرجعنا حقنا زمجروا وهددوا وضربوا وتآمروا ٠٠ وحمينا قناتنا وصنا الملاحة ، وتركناهم يمرون دون أن يدفعوا شيئا ٠٠

ورغم ذلك جاءوا بأساطيلهم ٠٠ وسدوا القناة !

والى الشرق « ايلات » الميناء الذى سلمه الخونة لاسرائيل لتستورد اليه اليهود وتصدر منه المتاعب ..

وفى الجنوب القبضة البريطانية الملطخة بالدم والاجرام ..

وفى هذه البقعة الصغيرة من شاطىء الحديدة رحنا نحن الثلاثة مصرى ويمنيان نتناقش فى مستقبل العروبة .

ولست أتذكر تفاصيل هذا النقاش ..

لقد ثرنا أكثر من مرة وتراشقنا بالاتهامات والكلمات العظيمة ، وشدوا على يدى وربت على أكتافهما .. وتعاتبنا ، وتبادلنا الاعتذارات ، واثتقلنا كالمحمومين من القاهرة الى بغداد .. الى الرياض .. وتحدثنا عن روسيا ، ومشروع ايزنهاور وفندنا حجج الديمقراطيين ، ونهشنا جثة الديكتاتورية ولعنا الاستبداد ... وهزأنا بالشعارات المجردة ..

لست أذكر تفاصيل هذا النقاش الغريب ...

ولكنى سأحاول أن ألخص خطوته العريضة ..

● الزاوية التى تحدد موقفنا فى القاهرة من جميع الحكومات والحركات والاحزاب والهيئات .. هى موقفها من الاستعمار ، موقفها من المعركة التى تخوضها القومية العربية ، من الاستعمار الانجليزى والفرنسى المتوطن ، والامريكى الزاحف ، بمؤامراته ومشاريعه .

ان الصحافة تتمتع بحرية نادرة فى لبنان وهى تستطيع أن تتهم الحكومة بكل شىء وفى صراحة تامة ..

ورغم ذلك أيدت حكومة لبنان ، مشروع ايزنهاور ، وحولت أرضها الى وكر للتآمر ضد القومية العربية ، والهجوم على سياسة التحرر ، وباسم الديمقراطية فتحت بيروت لكل صهيونى استعمارى، عدو للشعوب العربية ... أما حكومة اليمن فقد رفضت مشروع

ايزنهاور على لسان مندوبها فى مصر ·· ورفض الامام اعلان قبوله، وسارت اليمن خطوات واسعة مع السياسة العربيـة التحـررية وترفض اقرار أى مساومة مع الاستعمار ··

فأيهما أقرب الينا ·· ديمقراطية لبنان المسمـومة أم الخطـوات التحررية فى اليمن ؟

لسنا دعاة « مذهبية » معينة ، ولكن جنود ثورة تحررية يهمنا أن نكتل حولها كل من يرغب فى التحرر ·

وبين صفوفنا يوجد مكان للملوك يرفضون أن يعيشوا عبيـدا أذلاء لسفراء وشنطن وباريس ولندن ··

وأمراء لا يبيعون عروبتهم بملذات يشترى بها الاستعمار نفوسهم· ورجال من أقصى اليمين يقبلون أن يخوضوا الثورة الجديدة جنبا الى جنب مع رجال اليسار · على أن تحكمهم جولدا مايير ، وتذل العروبة لعصابات اسرائيل ·· فى صفوفنا مكان للملكيات وجمهوريات وامارات وسلاطين ·· ودول ديمقراطية على الطراز الغربى ·· وأخرى اختارت الديمقراطية الموجهة وثالثة تتلمس طريقها ··

اننا على استعداد لان نضع أيدينا فى يد كل من يقبل محاربة الاستعمار بصرف النظر عن برنامجه الاجتماعى أو فلسفته فى الحكم أو موقفه من تطورات بلاده الداخلية ما دامت لا تنعكس فى شـكل خيانة أو مساومة · وما دامت لا تعرقل معركتنا الكبرى والاصيلة·· وهى معركة التحرر من السيطرة الاجنبية ، واستئصـال الخطـر الصهيونى ··

والقومية العربية ليست كما يصورها الغرب حركة سياسيـة تستهدف خلق شكل معين من الوحدة ، ونظـام سـياسى ، بل هى وحدة كفاح ·· ان تمخضت عن وحدة أو مجموعة وحدات سياسية

فذلك كضرورة من ضرورات المعركة ، وكثمرة لها ولكنها لا تشترط اندماجات ولا تشكيلات فى أدوارها الاولى ..

والقاهرة لا تشترط ملكية أو جمهورية فى عمان ... بل كانت عمان ملكية ، وكانت مع العروبة وملكها وحكومته مع عبد الناصر والقوتلى ... ولبنان جمهورية ، وكانت مع الاستعمار وشمعون وحكومته مع جولدا مايير ...

● كل هذا صحيح

ولكن يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أنها معركة . ومن طبيعة المعارك الحركة .. والحليف الدائم أفضل من التحالفات المؤقتة ، والعرش الذى يتنكر ينهار ... والنظام الذى يمثل عثرة مصيره الى التفسخ عند ما تزداد سرعة الزحف ، وقبل ذلك كله فنحن مركز ثورة لن يرضيها أن يموت الفلاحون من أجل الاقطاع .. فقط علينا أن نحدد الهدف الاول والعاجل ..

● بعض الملوك والحكام يحبون أن يلعبوا بالنار ، وتستهويهم الشعارات الجديدة ، وتفعم نفوسهم بالرضى عند ما يسمعون اسمهم يذكر مقرونا بأسماء القادة الوطنيين فيسيرون خطوات فى طريق الشعوب ، وهم ينتوون الانتكاس عند أول فرصة .

ولكنهم ينسون أن هذا الطريق متى بدأ السير فيه .. فان أحدا لا يستطيع أن يوقف الزحف ..

وعلى الوطنيين أن يتمسكوا بهذه الخطوات ، والمعركة التى قد تبدأ مساومة بين الحاكم الخائن والمستعمرين، غالبا ما تنتهى اذا ما وجدت القيادة الوطنية الواعية بثورة وطنية على مستوى عال ، قد يطوح بالحاكم المساوم !

واذا ما بدأت المتاعب .. فان واجبنا هو تقدم الصفوف لا سد الطريق بأثارة النقاش وخلط آخر البرنامج بأوله ..

● اننا نعيش فى عصر الشعوب ... وكل الطرق تفضى الى النصر .. فقط يجب أن نتقدم نحن الصفوف ولا نختار موقف المتفرجين والنقاد ..

دعوا الحاكمين يلهون بقفل القمقم .. فعند ما يتسرب المارد ويل للذين يعترضون طريقه

***

ولم يكن من العسير أن نتفق فالخيط الدقيق يجمع بين قلوبنا والنفوس الشريفة لا يصعب تفاهمها .. ومن الشرق لمع الضياء .. وأذن المؤذن بفجر يوم جديد .. وافترقنا على أن نلتقى فى صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ..

وكان أحدهما الخطيب وسمعت خطبة نارية ضد الاستعمار .

وشددت على يده عقب الصلاة وأنا أقول ..

« هذه أجدى لمعركتنا من ألف كتاب حول حق الاقتراع المباشر »